شبهة ورد

※ الشيخ
محمد هادي معرفة

# البداء في القرآن والحديث (١)

## مقدمة

من المسائل ذوات الخطورة في الجدل الكلامي، والتي ورد بها الأثر الصحيح، هي مسألة البداء في التكوين على غرار مسألة النسخ في التشريع، فقد ورد في الحديث بلفظه، كما ورد في القرآن تصريحاً وتلويحاً في عدة آيات. وهكذا تعرض له العلماء عبر بحوثهم عن صفات الذات ولاسيما صفة العلم الذاتي ثم الفعلي الذي هو منشأ البداء، ونظروا في تأويله وتوجيهه حسبما اوتوا من حول وقوّة.

فقد أوّله الجمهور بأنه في التكوين بداء في ظاهره ولا بداء في واقع الأمر.

وأوّله الشيخان (الصدوق والمفيد) أنه بداء في مشيئته تعالى المتغيّرة حسب تغير المصالح المقتضية، والمشيئة من صفات الفعل وهي مُحدَثة، فلا تغير في علمه تعالى الذاتي الازلي القديم.

لكن الشريف المرتضى أخذه على ظاهره من غير تأويل، بناء على أنه تجدّد في علمه تعالى الفعلي، الذي هو نفس ظهور الأشياء على صفحة الوجود، دون علمه الذاتي الازلي المكنون.

وكان موضع البداء من صفاته تعالى الجمالية والجلالية موضعاً خطيراً؛ لكونه تجدداً في الخلق والتدبير إذ كل يوم هو في شأن، ولا يزال في خلق

جديد، فعّال لما يشاء ويحكم ما يريد. وهو ردّ قاطع لما زعمت اليهود من أن يد الله مغلولة، وقد فرغ من الامر، فلا تغيير في القضاء ولا تبديل في التقدير، فقد جفّ القلم بما رقم، فلا موضع بعده للدعاء ولا للانابة والاستغفار. وقد ردّ عليهم سبحانه ولعنهم بما قالوا: ﴿بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾. ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب﴾.

الامر الذي جعله من أفخم ما عُظّم الله به، وكان وصفه تعالىٰ به من اكبر العبادات، كما في الحديث.

هذه هي مجموعة المسائل، معروضةً علىٰ أصول النقد والتمحيص، واستناداً إلىٰ دلائل الكتاب العزيز والسنة الشريفة. ولعلنا في هذا العرض الوجيز قد اوفينا جانباً من واجبنا الديني، واسدينا خدمة متواضعة لابناء امتنا المجيدة قربةً إلىٰ الله تعالىٰ، وهو من وراء القصد، وهو الوليّ المستعان والموفق للصواب، بحوله وقوته.

## البداء في اللغة والاصطلاح

البداء هو الظهور بعد خفاءٍ. يقال: بدا له في كذا، أي تجدّد له فيه رأي. وبدا له شيءٌ، أي ظهر له علىٰ غير ترقّب أو من غير قصد.

قال تعالىٰ: ﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات لَيَسجننه حتىٰ حين﴾[1]، وهذا من البداء في الرأي.

وقال: ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾[2]، أي ظهر لهم منه تعالىٰ علىٰ غير ترقّب لهم من ظهوره.

قال أبو ربيعة المخزومي:

بدا لي منها مِعصمٌ حين جَمَّرت ... وكفٌّ خضيبٌ زُيّنت ببنانِ

ولعل ظهور معصمها وكفّها له في تلك الحالة كان علىٰ خلاف انتظاره، حيث النساء العفيفات يحتشمن من إبداء زِينتهنّ للأجانب في حالة رمي الجمرات وهي حالة عبادة. فلعلها ظهرت زينتها عن غير قصدها.

قال ابو هلال العسكري: «الفرق بين البدوّ والظهور، أن الظهور يكون بقصد

(١) يوسف: ٣٥.

(٢) الزمر: ٤٧.

وبغير قصد، تقول: استتر فلان ثمّ ظهر، وهذا يدل على قصده للظهور. ويقال: ظهر له أمر فلان وان لم يقصد لذلك.

والبدوّ ما يكون بغير قصد، تقول بدا البرق وبدا الصبح وبدت الشمس. وبدا لي في الشيء، لأنك لم تقصد للبدوّ» (٣).

ولفظة البداء المستعملة في القرآن ـ بهيئة الثلاثي منها ـ كلها على ذلك على وجه التقريب (٤).

والبداء في مصطلح الفن: نشأة رأي جديد، وهو في التكوين نظير النسخ في التشريع، أي عبارة عن التجدّد في الرأي، سواء في التكوين ام في التشريع.

قال تعالى بشأن النسخ: ﴿ما ننسخ من آية أو نُنسها نأتِ بخير منها أو مثلها ألم تعلم أنّ الله على كل شيء قدير﴾ (٥).

وقال بشأن البداء: ﴿لكل أجل كتاب * يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب﴾ (٦).

غير أنه بالنسبة اليه تعالى يختلف معناه عما إذا نسب إلى غيره، حسبما ننبّه.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

* * *

وهكذا ورد في الحديث نسبة البداء إلى الله سبحانه، ففي صحيح البخاري ـ في حديث الأقرع والأبرص والأعمى ـ: «بدا لله عزّوجلّ أن يبتليهم ...» (٧).

قال ابن حجر: «بدا لله، بتخفيف الدال المهملة بغير همز، أي سبق في علم الله فأراد إظهاره، وليس المراد أنه ظهر له بعد أن كان خافياً، لأن ذلك محال في حق الله تعالى».

قال: «وقد اخرجه مسلم، بلفظ: أراد الله أن يبتليهم فلعلّ التغيير فيه من الرواة، مع أن في الرواية أيضاً نظراً، لأنه تعالى لم يزل مريداً. والمعنى: أظهر الله ذلك فيهم. وقيل: معنى أراد قضى» (٨).

وقال ابن الأثير: «وفي حديث الأقرع بدا لله ان يبتليهم، أي قضى بذلك، وهو معنى البداء هاهنا، لأن القضاء سابق، والبداء استصواب شيء عُلم بعد أن لم

(٣) الفروق اللغوية ص٢٣٧ باب ٢٧.

(٤) راجع: آل عمران: ١١٨ والانعام: ٢٨ والاعراف: ٢٢ والزمر: ٤٨ والجاثية: ٣٣ والممتحنة: ٤.

(٥) البقرة: ١٠٦.

(٦) الرعد: ٣٨ ـ ٣٩.

(٧) كتاب الانبياء ٤: ٢٠٨، ط. شكول.

(٨) فتح الباري (شرح البخاري) ٦: ٣٦٤.

يُعلَم. وذلك على الله عزوجل غير جائزٍ»[٩].

وروى ثقة الاسلام الكليني بإسناده الصحيح إلى الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: «ما بدا لله في شيء إلا كان في علمه قبل أن يبدو له»[١٠].

قال الشيخ ابو عبد الله المفيد: «المعنى في قول الامامية: بدا لله في كذا، أي ظهر له فيه، ومعنى ظهر فيه ظهر منه، وليس المراد منه تُعقّب الرأي ووضوح أمر كان قد خفي عنه. وجميع أفعاله تعالى الظاهرة في خلقه، بعد أن لم تكن، فهي معلومة فيما لم يزل. وإنما يوصف منها بالبداء ما لم يكن في الاحتساب ظهوره ولا في غالب الظن وقوعه، فأما ما علم كونه وغلب في الظن حصوله فلا يستعمل فيه لفظ البداء».

وقال في قوله تعالى: ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾: «يعني به: ظهر لهم من افعاله تعالى بهم ما لم يكن في حسبانهم وتقديرهم»[١١].

وللعلامة المجلسي ـ في شرحه على الكافي، وكذا في بحاره ـ بحث تفصيلي عن مسألة البداء، على ما ورد في صحيح الأخبار عن الائمة الأطهار[١٢]، وكذا السيد عبد الله شبر في مصابيح الانوار[١٣]، وكذا غيرهما من الاعلام. وسنورد مقتطفات من إفاداتهم الزاهية.

## البداء في معناه الممتنع على الله:

البداء في حقيقته: نشأة رأي جديد، وهو عبارة عن تجدّد رأي لم يـ ، من ذي قبل، لأسباب دعت إلى هذا التجدد، وهو في الغالب جهلٌ بواقع الأمر انكشف لحينه، الامر الذي يستدعي حصول العلم بشيء أو أمر كان خافياً قبل ذلك. ومن ثمّ كان مستحيلاً عليه تعالى، الذي لا يخفى عليه شيء في السماوات والأرض، ولم يزل عالماً بالأشياء قبل وجودها: ﴿وما يعزب عن ربك من مثقال ذرّة في الارض ولا في السماء﴾[١٤].

وإلى ذلك اشار شيخنا المفيد بقوله: «وجميع افعاله تعالى الظاهرة في خلقه، بعد أن لم تكن فهي معلومة له تعالى فيما لم يزل...».

وهكذا فيما جاء عن الامام الصادق عليه السلام «ما بدا لله في شيء إلّا كان في علمه قبل

(٩) النهاية ١: ١٠٩.

(١٠) الكافي ١: ١٤٨. وصحح المجلسي أسناد الحديث في شرحه مرآة العقول ٢: ١٤٠.

(١١) تصحيح الاعتقاد: ٢٥.

(١٢) مرآة العقول ٢: ١٢٣ ـ ١٤٨، والبحار ٤: ٩٢ ـ ١٣٤.

(١٣) مصابيح الأنوار في حلّ مشكلات الاخبار ١: ٣٣ ـ ٤٧.

(١٤) يونس: ٦١.

أن يبدو له».

وقال: «إن الله لم يبدُ له من جهل» (١٥).

وقال عليه السلام: «من زعم أن الله بدا له في شيء ولم يعلمه أمس فابرأوا منه» (١٦).

وقال: «من زعم أن الله تعالىٰ بدا له في شيء بداء ندامة فهو كافر بالله العظيم» (١٧).

وروىٰ الكليني في الصحيح بإسناده عن منصور بن حازم، قال: «سألت ابا عبد الله عليه السلام: هل يكون اليوم شيء لم يكن في علم الله بالأمس؟ قال: لا. من قال هذا فأخزاه الله. قلت: أرأيت ما كان وما هو كائن إلىٰ يوم القيامة، أليس في علم الله؟ قال: بلىٰ، قبل أن يخلق الخلق» (١٨).

## البداء في معناه الجائز علىٰ الله:

وللعلماء في توجيه البداء المنسوب إلىٰ الله آراء ونظرات سوف نشرحها، وتتلخص في تعليق مشيئته تعالىٰ علىٰ شرطٍ كان تحققه رهن اختيار الانسان. فإذا اختار الانسان فعله، تعلَّقت مشيئتُه تعالىٰ بإيجاده.

مثلاً إذا كان تقدير الشيء ـ حسب طبعه الأولي ـ وقوعه في وقت كذا وعلىٰ صفة كذا، ولكن مشروطاً بعدم طروء حالة كذا، وكان طروء تلك الحالة منوطاً باختيار الانسان، إن شاء فعله أو لم يفعله، فإذا فعله انقلب التقدير إلىٰ غير التقدير الاول، ليقع في وقت آخر وعلىٰ صفة اخرىٰ.

فإن كان من طبع زيد أن يعيش مدة خمسين سنة، كان هذا مقدار عمره في التقدير الاول، ولكن مشروطاً بما إذا لم يصل رحمه، أما إذا وصل رحمه، فإن الله تعالىٰ يزيد في عمره إلىٰ سبعين سنة مثلاً، أو إذا لم يقطع رحمه، أما إذا قطع رحمه، فإن الله تعالىٰ ينقص من عمره عشرين سنة.

فقد صح القول ـ عند طروء الحالة الكذائية ـ أنّ الله قد بدا له، أي قدّر تقديراً يخالف التقدير الاول، وهو من البداء الجائز علىٰ الله الذي لا يتنافى وعلمه الازلي القديم، حيث كان يعلم تعالىٰ بوقوع الشرط أو عدم وقوعه، وكان التقدير الاول حسب الطبع الذاتي، والتقدير الآخر حسب الحالة الطارئة، وليس تبديلاً في الرأي ولا تجديداً في العلم.

(١٥) الكافي ١:١٤٨.

(١٦) بحار الانوار ٤: ١١١.

(١٧) المصدر السابق: ١٢٥ في الهامش.

(١٨) الكافي ١: ١٤٨.

وبذلك يستحكم سلطانه تعالىٰ في الخلق والتقدير، وتكون يده تعالىٰ مبسوطة يفعل كيف يشاء، وحيثما تقتضيه حكمته في الابداع والايجاد.

كما أن ذلك يضمن للانسان حريته في الاختيار، وأنه الذي يعيّن مصيره في الحياة بنفسه، وليس مقهوراً بما قدرته يد التقدير الاول.

فمسألة البداء بهذا المعنىٰ، كافلة الشمول سلطانه تعالىٰ، وللانسان حريته في الاختيار.

الامر الذي تبتنىٰ عليه أسس العقيدة الاسلامية في عموم القدرة وشمول المشيئة ومباني التكليف في الحرية والاختيار، فما أوفاه من أصل ركين في مباني الشريعة والدين.

ومن ثم ورد في الحديث عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «**ما عُظِّم الله بمثل البداء**» و «**ما عبد الله بشيء مثل البداء**»(١٩).

(١٩) راجع: أصول الكافي ١ ١٤٦.

## آراء وتأويلات:

بعد ورود نسبة البداء اليه تعالىٰ في القرآن والحديث، وعدم جواز حمله علىٰ معناه حقيقة فما وجه التأويل؟

قال الصدوق: «ليس البداء كما يظنه جهال الناس بداء ندامة، تعالىٰ الله عن ذلك، ولكن يجب علينا أن نقرّ لله عزوجلّ بأن له البداء معناه: أن له ان يبدأ بشيء من خلقه فيخلقه قبل شيء، ثم يعدم ذلك الشيء ويبدأ بخلق غيره(٢٠)، أو يأمر بأمر ثم ينهىٰ عن مثله، أو ينهىٰ عن شيء ثم يأمر بمثل ما نهىٰ عنه، وذلك مثل نسخ الشرايع وتحويل القبلة وعدة المتوفىٰ عنها زوجها. ولا يأمر الله عباده بأمرٍ في وقتٍ ما إلّا وهو يعلم ان الصلاح لهم في ذلك الوقت في أن يأمرهم بذلك، ويعلم أن في وقت آخر الصلاح لهم في أن ينهاهم عن مثل ما أمرهم به، فإذا كان ذلك الوقت امرهم بما يصلحهم. فمن أقر لله عزوجل بأنّ له ان يفعل ما يشاء، ويعدم ما يشاء، ويخلق مكانه ما يشاء، ويقدّم ما يشاء، ويؤخّر ما يشاء، ويأمر بما يشاء كيف يشاء، فقد أقرّ بالبداء».

قال: «والبداء، هو ردّ علىٰ اليهود، لأنّهم قالوا: إن الله قد فرغ من الأمر، فقلنا:

(٢٠) لعل كلامه هذا ناظر إلىٰ ما نقل عن الحسين بن الفضل في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿كل يوم هو في شأن﴾ قال: «هي شؤون يُبديها، لا شؤون يبتديها». (فتح الباري ١١: ٤٣١).
وقال العلامة المجلسي: «ليس غرض الصدوق أن البداء مشتق من المهموز، وإنما اراد أن هذا مما يتفرع علىٰ البداء» (بحار الانوار ٤: ١٠٩).

إنّ الله كل يوم في شأن، يحيي ويميت ويرزق ويفعل ما يشاء».

ثم اخذ في تفسير البداء، وأنه ليس من ندامة، كما هي حقيقته العرفية، بل البداء بالنسبة اليه تعالىٰ هو نفس الظهور أي التحقّق في الوجود العيني، من غير أن يكون خافياً عليه تعالىٰ. وهذا الظهور إنما هو بظهور سببه المقتضي لتغيير المشيئة بشأنه ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب﴾.

أي يغير القضاء حسب تغيير مشيئته ومعلوم أن مشيئته تعالىٰ إنما تكون وفق المصالح الواقعية المتغيّرة بالذات، ومن ثم وردت الروايات عن أئمة الهدى أنّ المشيئة مُحدثة (٢١).

قال الصدوق في ذلك: «والبداء ليس من ندامة، وإنما هو ظهور امر. تقول العرب: بدا لي شخص في طريقي أي ظهر. قال الله عزوجل: ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ (٢٢)، أي ظهر لهم. ومتىٰ ظهر لله تعالىٰ ذكره من عبدٍ صلةٌ لرحمه زاد في عمره، ومتىٰ ظهر له منه قطيعةٌ لرحمه نقص من عمره، ومتىٰ ظهر له من عبد اتيانُ الزنىٰ نقص من رزقه وعمره، ومتىٰ ظهر له منه التعفّفُ عن الزنىٰ زاد في رزقه وعمره» (٢٣).

وبهذا البيان ظهر أن البداء بشأنه تعالىٰ إنما هو نفس الظهور له، وهو ظهور المصالح والمقتضيات الموجبة لتغيير مشيئته تعالىٰ، التابعة للمصالح الكامنة وراء الأمور. وعلىٰ حسب تغيير المصالح يتغير التقدير والتدبير بشأن الامور.

ونقل شيخنا المفيد عن بعض اصحابنا الامامية، أن اطلاق البداء علىٰ فعله تعالىٰ إنما كان علىٰ وجه الاستعارة والمجاز، وليس علىٰ حقيقته. وهذا كإطلاق سائر الصفات عليه تعالىٰ، تشبيهاً بمن يحمل مبادئ هذه الصفات، والتشبيه إنما جاء من قبل النتائج والآثار، حيث قالوا ـ في صفاته تعالىٰ ولاسيما في صفاته الفعلية ـ: خذ الغايات واترك المبادئ.

قال: «وقد قال بعض اصحابنا: إن لفظ البداء أطلق في اصل اللغة علىٰ تعقّب الرأي والانتقال من عزيمة إلىٰ عزيمة، وإنما أطلق علىٰ الله تعالىٰ وجه الاستعارة، كما يطلق عليه الغضب والرضا مجازاً غير حقيقة» (٢٤).

(٢١) التوحيد للصدوق: ٣٣٥ ـ ٣٣٦. والرواية صحيحة الاسناد متفق عليها.

(٢٢) الزمر: ٤٧.

(٢٣) التوحيد: ٣٣٥ ـ ٣٣٦.

(٢٤) رسالة تصحيح الاعتقاد: ٢٥.

فاتصافه تعالىٰ بالبداء ـ كاتصافه بالرضا والغضب وسائر صفات الفعل، بل صفات الذات أيضاً ـ إنما هو بالنظر إلىٰ غايات هذه الصفات وآثارها المترتبة عليها، اما مبادئ هذه الصفات فتعالت ذاته المقدّسة أن تتصف بها أي تحملها، حتىٰ ولو كان بنحو الاتحاد العيني ـ حسبما اوّله ارباب الكلام ـ فقد تنزه تعالىٰ عن اتصاف مبادئ هذه الصفات، وإنما يفعل ما يفعله المتصف بها، فهو تشبيه ومجاز، تشابهاً في النتائج والآثار.

قال الامام امير المؤمنين عليه السلام بهذا الشأن: «**وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه؛ لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف انه عين الصفة. فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه...**»(٢٥).

فيجوز وصفه تعالىٰ بأيّ وصفٍ وَصَفَ به نفسه مما جاء في الأثر الصحيح (الكتاب والسنة)، لكن لا بمعنىٰ أنه تعالىٰ يحمل مبادئ هذه الصفات ـ سواء في صفات الذات وصفات الفعل ـ بل بمعنىٰ ترتب الآثار والغايات الملحوظة في هذه الصفات.

وهكذا في مسألة البداء والنسخ، إنما يفعل تعالىٰ فعل من يبدو له فيأتي بأمر جديد لم يكن بحسبان الناس، لكنه ليس جديداً بالنسبة اليه تعالىٰ العالم في الازل.

لكن شيخنا المفيد ـ مع احترامه لهذا الرأي وقبوله هذا التأويل في مطلق صفاته تعالىٰ ـ لم يرقه هذا التأويل بشأن البداء والنسخ هنا، ورجّح تفسير البداء بالظهور، ظهوراً في ذات الأشياء لا ظهوراً في علمه تعالىٰ.

قال: «وإنّ هذا القول لم يضر بالمذهب، إذ المجاز من القول يطلق علىٰ الله تعالىٰ فيما ورد به السمع، وقد ورد السمع بالبداء علىٰ ما بيّنا، والذي اعتمدناه في معنىٰ البداء أنه الظهور، علىٰ ما قدمت القول في معناه، فهو خاص فيما يظهر من الفعل الذي كان وقوعه يبعد في النظر (الظنّ) دون المعتاد».

ثم قال في معنىٰ البداء: «فالمعنىٰ في قول الامامية: بدا لله في كذا، أي ظهر له فيه، ومعنىٰ ظهر فيه أي ظهر منه(*) . وليس المراد منه تعقّب الرأي ووضوح امر كان قد خفي عنه. وجميع افعاله تعالىٰ الظاهرة في خلقه، بعد أن

(٢٥) نهج البلاغة، الخطبة ١. وفي الكافي ١: ١٤٠ «وكمال توحيده نفي الصفات عنه».

(*) الضمير يرجع إليه تعالىٰ، أي ظهر منه تعالىٰ أمر في ذلك الشيء.

لم تكن، فهي معلومة (له) فيما لم يزل. وإنما يوصف منها بالبداء ما لم يكن في الاحتساب ظهوره ولا في غالب الظن وقوعه، فأما ما علم كونه وغلب في الظن حصوله، فلا يستعمل فيه لفظ البداء» (٢٦).

(٢٦) تصحيح الاعتقاد: ٢٥.

اراد ﷺ أن معنى البداء بشأنه تعالى في قولهم: بدا لِلّهِ في كذا، هو ظهور فعله تعالى في شيء ظهوراً لم يكن بالحُسبان، وإن كان ظهوره لهذا الوقت معلوماً له تعالى في الازل.

ثمّ بين ﷺ أن التقدير في الاشياء ـ أزلاً ـ ضربان : تقدير حتم وتقدير مشروط، اما الحتم فهو الذي سيكون، وقد علم الله، أن سوف لا يعترض طريق تحقّقه شيء لا محالة. وأما المشروط فهو المعلق على شرطٍ إن تحقق وقع والا لم يقع، وإن كان الله تعالى يعلم بتحقق الشرط خارجاً أو عدم تحققه. الامر الذي يخفى على غيره، فيرون في ظاهر الأمر خلاف ما كمن من التقدير.

فإذا تحقق الشرط وتغيّرت الامور عن مجاريها الأوليّة، حسبوها تغييراً في التقدير، غير أن الشرائط تغيّرت وظهرت من المصالح والمقتضيات ما يستدعي تغييراً في ظاهر التقدير، أما في واقعه الذي هو أم الكتاب، فكان معلوماً له تعالى في الازل، فلم يحصل تغيير في علمه تعالى وإنما حصل في مشيئته، وهي ارادته الفعلية التي هي من صفات الفعل المتجددة حسب تجدّد المصالح والمقتضيات.

قال ﷺ: «وقد يكون الشيء مكتوباً بشرط، فيتغير الحال فيه. قال الله تعالى: ﴿ثمّ قضى اجلاً واجلٌ مسمّىً عنده﴾ (٢٧)، فبيّن أنّ الآجال على ضربين، ضرب منها مشترط يصحّ فيه الزيادة والنقصان. الا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وما يعمَّر من معمَّر ولا ينقص من عمره إلّا في كتاب﴾ (٢٨)، وقوله تعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض﴾ (٢٩)، فبيّن أن آجالهم كانت مشترطة في الامتداد بالبرّ، والانقطاع بالفسوق. وقال تعالى فيما خبر به عن نوح ﷺ في خطابه لقومه: ﴿استغفروا ربكم إنه كان غفّاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ (٣٠) فاشترط لهم في مدّ الأجل وسبوغ النعم الاستغفار، فلمّا لم يفعلوه قطع آجالهم وبتر أعمارهم واستأصلهم بالعذاب».

(٢٧) الانعام: ٢.

(٢٨) فاطر: ١١.

(٢٩) الاعراف: ٩٦.

(٣٠) نوح: ١٠ ـ ١١.

قال: «فالبداء من الله تعالىٰ يختص ما كان مشترطاً في التقدير، وليس هو الانتقال من عزيمة إلىٰ عزيمة، ولا من تعقّب الرأي. تعالىٰ الله عمّا يقول المبطلون علوّاً كبيراً»(٣١).

(٣١) تصحيح الاعتقاد: ٢٥.

* * *

قلت: وبهذا المعنىٰ جاءت الاحاديث عن اهل البيت عليهم السلام، فقد روىٰ الكليني بإسناده الصحيح إلىٰ حمران بن أعين قال: «سألت ابا جعفر عليه السلام عن قول الله عزوجّل ﴿هو الذي خلقكم من طين ثم قضى اجلاً واجلٌ مسمّىٰ عنده﴾ (٣٢) قال: هما أجلان: اجل محتوم واجل موقوف»(٣٣).

(٣٢) الانعام: ٢.

(٣٣) الكافي ١: ١٤٧.

وأيضاً بإسناده إلىٰ الفضيل بن يسار، قال: «سمعت ابا جعفر عليه السلام يقول: من الامور امور موقوفة عند الله، يُقدّم منها ما يشاء ويؤخر منها ما يشاء»(٣٤).

(٣٤) المصدر السابق.

وروىٰ المفيد ـ في اماليه ـ بإسناده عن ابي جعفر عليه السلام، قال: «... وامر موقوف لله تعالىٰ فيه المشيئة، يقدم منه ما يشاء ويؤخر ما يشاء. وهو قوله تعالىٰ: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب﴾»(٣٥).

(٣٥) بحار الانوار ٤: ١٠٢.

* * *

وعليه فالبداء بشأنه تعالىٰ بداء في ظاهره، أي ظهور فعله تعالىٰ في مورد لم يكن بالحسبان ظهوره، حيث خفاء الأسباب والعلل المتجددة (الطارئة علىٰ خلاف المجاري الاولىٰ) علىٰ غيره تعالىٰ، فيبدو من فعله تعالىٰ ما لم يكن في الحسبان.

فلم يكن بداء في رأيٍ (أي تغيير في عزيمة) ولا تجدد في علم، وإنما هي مشيئته تعالىٰ تتجدد حسب تجدّد المصالح والمقتضيات. والمشيئة من صفات الفعل غير الأزلية.

والبداء في المشيئة أي التجدد فيها، كان لازم طبعها بعد أن كانت صفة حدوث: «يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد». فمعنىٰ بدا لله في كذا: تغيرت مشيئته فيه، ومعنىٰ تغيرت: حدثت علىٰ خلاف المجاري الأولىٰ، حيث خفاء ما يتجدد

من المصالح والمقتضيات على غيره تعالى. فلا يزال التقدير والتدبير يتجددان حسب تجدد المصالح والمقتضيات. وإنما يوصف بالبداء ما لم يكن بالحسبان تقديره ولا في غالب الظن تدبيره.

* * *

ولم يختلف ما ذهب اليه المفيد عما ذهب اليه الصدوق إلا في جانب متعلّق الظهور، فكان ما يبدو له تعالى أي يظهر له، عند الصدوق، هي نفس العلل والمقتضيات. اما عند المفيد فهي نفس افعاله تعالى الظاهرة على خلاف الحسبان، وإن كان في المآل يرجع هذا الظهور غير المترقب الى ظهور العلل والاسباب الكامنة وراء الامور، أي تجدّدها وتغيرها الموجبين لتغيير مشيئته تعالى وحدوثها على خلاف الانتظار.

* * *

هذا، ولكن هنا وجهاً آخر يفسّر البداء تفسيراً يتوافق مع معناه الظاهري، وهو التجدد في العلم، أي حدوثه بعد أن لم يكن، وذلك أن علمه تعالى بذوات الأشياء علماً فعلياً، إنما يتحقق بتحقق الاشياء أي ظهورها على صفحة الوجود، ظهوراً بالعين، وإن كانت قبل ذلك ظاهرة له تعالى، لكن ظهوراً بالوصف (بوصف أنه سيوجد) لا ظهوراً بالعين وتحققا بالذات.

وهذا الوجه ذكره الشريف المرتضى حسبما نقل عنه الشيخ.

قال الشيخ ابو جعفر الطوسي ـ بعد أن ذكر أنّ البداء حقيقة في الظهور، وقد يستعمل في العلم بالشيء بعد ان لم يكن حاصلاً وكذلك في الظن. فأمّا إذا أضيف إلى الله تعالى، فمنه ما يجوز اطلاقه عليه، ومنه ما لا يجوز. فامّا ما يجوز من ذلك فهو ما أفاد النسخ بعينه، ويكون اطلاق ذلك عليه على ضرب من التوسع. وعليه يُحمل ما ورد عن الصادقين عليهما السلام من الاخبار المتضمنة لإضافة البداء اليه تعالى، دون ما لا يجوز عليه من حصول العلم بعد ان لم يكن، ويكون

وجه اطلاق ذلك فيه تعالى والتشبيه، هو أنه إذا كان ما يدلّ على النسخ يظهر به للمكلّفين ما لم يكن ظاهراً لهم، ويحصل لهم العلم به بعد أن لم يكن حاصلاً لهم، اطلق على ذلك لفظ البداء ـ.

بعد أن ذكر ذلك قال: «وذكر سيدنا الأجل المرتضى قدس الله روحه وجهاً آخر في ذلك، وهو أن قال: يمكن حمل ذلك على حقيقته بأن يقال: بدا له تعالى بمعنى أنه ظهر له من الامر ما لم يكن ظاهراً له، وبدا له من الامر والنهي ما لم يكن ظاهراً له، لأنّ قبل وجود الامر والنهي لا يكونان ظاهرين مُدرَكين، وإنما يعلم أنه يأمر أو ينهى في المستقبل، فأما كونه آمراً أو ناهياً فلا يصحّ ان يعلمه إلّا إذا وجد الامر والنهي.

وجرى ذلك مجرى احد الوجهين المذكورين في قوله تعالى: ﴿**ولنبلونّكم حتى نعلم المجاهدين منكم**﴾[٣٦] بأن نحمله على أن المراد به: حتى نعلم جهادكم موجوداً، لأنّ قبل وجود الجهاد لا يعلم الجهاد موجوداً، وإنما يعلم كذلك بعد حصوله. فكذلك القول في البداء.

قال الشيخ: وهذا وجه حسنٌ جدّاً»[٣٧].

وهذا الذي ذكره السيد، وإن كان لا يبعد كثيراً عمّا ذكره الشيخان الصدوق والمفيد، إلّا أنه لا يستدعي تجوزاً في اللّفظ، ولا ابتعاداً عن متفاهم اللغة والاستعمال، ذلك الابتعاد.

إذ ـ عليه ـ يكون البداء مستعملاً في نفس معناه: الظهور، ظهور الشيء له تعالى بمعنى وجوده من كتم العدم وحضوره لديه تعالى، بعد أن كان خافياً اي مستتراً بغياهب العدم المحض.

وكل ما يوجد فهو حاضر لديه تعالى، وعلمه تعالى بالأشياء انما هو بمعنى حضور ذواتها لديه وكونها بمحضره تعالى. أما الذي لم يخرق غياهب العدم ولم يتحلّ بحلية الوجود، فهو غير حاضر لديه ولم يحظ بشرف الوجود أي البروز والظهور من كتم الخفاء والاستتار.

نعم علمه تعالى بالأشياء قبل وجوداتها كان ازلاً، كعلمه بها بعد وجوداتها، إذ الحاجب الزمني ليس بحاجب بالنسبة إلى من لا يحدده الزمان. فقد تعلّق

(٣٦) محمد: ٣١. والوجه الآخر هو حمل الآية على ارادة: حتى يعلم المؤمنون.

(٣٧) بحار الانوار ٤: ١٢٥ ـ ١٢٦. نقلاً عن عدة الاصول للشيخ.

علمه تعالىٰ بالاشياء قبل وجوداتها وبعد وجوداتها علىٰ حدٍّ سواء.

سوىٰ أن هذا العلم بالنسبة إلىٰ ذوات الأشياء ـ أي نفس المعلومات المتعلقات لعلمه تعالىٰ ـ يختلف وجهه وعنوانه، فهو بالنظر إلىٰ ما قبل الوجود علم بأنه سيوجد، وبالنظر إلىٰ ما بعد الوجود علم بذات الموجود أي الموجود ذاته. وهناك فرق بين العلم بما يكون، والعلم بما هو كائن؛ لأن العلم بما سيكون علم تعلق بوصف الشيء الآتي، أما العلم بالكائن الموجود فهو علم تعلق بذات الشيء وعينه. وفرق بين العلم بالوصف والعلم بالعين.

* * *

وإلىٰ هذا المعنىٰ ينظر ما ورد من آيات تنفي علمه تعالىٰ بشيء، أو ليحصل علمه بشيء إذ نفي علمه تعالىٰ بشيء، معناه: نفي وجود ذلك الشيء وأنه لم يحظ بحلية الوجود، كما أنّ ارادة حصول علمه تعالىٰ بشيء، هي عين ارادة وجود ذلك الشيء، ومنحه للتشرف بالحضور لديه تعالىٰ.

قال العلامة الطباطبائي في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء﴾ (٣٨): «المراد ظهور ايمان المؤمنين بعد بطونه، فإن علمه تعالىٰ بالحوادث والأشياء في الخارج عين وجودها فيه، فإن الأشياء معلومة له تعالىٰ بنفس وجودها، لا بصورها المأخوذة منها ـ كما في علومنا وادراكاتنا ـ ولازم ذلك أن تكون ارادته تعالىٰ العلم بشيء هي ارادة تحقّقه وظهوره».

(٣٨) آل عمران: ١٤٠.

قال: «وحيث قال تعالىٰ: ﴿وليعلم الله الذين آمنوا...﴾ فأخذ وجودهم (أي وجود اشخاصهم) محقّقاً أفاد ذلك ارادة ظهور ايمانهم. وإذ كان ذلك علىٰ سنة الأسباب والمسبَّبات لم يكن بد من وقوع أمورٍ توجب ظهور إيمان المؤمن بعد خفائه»(٣٩).

(٣٩) الميزان ٤: ٢٨.

وقال الطبرسي: «وإذا كان الله تعالىٰ يعلمهم قبل اظهارهم الايمان كما يعلمهم بعده، فإنما يعلم قبل الاظهار أنّهم سيميزون، فإذا اظهروه علمهم متميزين. ويكون التغيير حاصلاً في المعلوم لا في العالم، كما أن احدنا يعلم الغد قبل مجيئه علىٰ معنىٰ أنه سيجيء، فإذا جاء علمه جائياً وعلمه يوماً لا غداً،

فإذا انقضى فإنما يعلمه امس لا يوماً ولا غداً، ويكون التغيير واقعاً في المعلوم لا في العالم.

وقيل معناه: وليعلم اولياءُ الله الذين آمنوا، وإنما اضيف إلى نفسه تفخيماً. وقيل معناه: ليظهر المعلوم مِن صبر من صبر وجزع من يجزع وايمان من يؤمن. وقيل: ليظهر المعلوم من الاخلاص والنفاق»[٤٠].

وهكذا قال الطباطبائي في قوله تعالى: ﴿**وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلّا لنعلم من يتّبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه**﴾[٤١]: «المراد بقوله ﴿**لنعلم**﴾ إما علم الرسل والانبياء مثلاً ... وإمّا العلم العيني الفعليّ منه تعالى، الحاصل مع الخلقة والايجاد، دون العلم قبل الايجاد»[٤٢].

وعلى هذا السبيل ورد قوله تعالى: ﴿**ولنبلونّكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم**﴾[٤٣] قال الطبرسي: «أي يتميز المجاهدون في سبيل الله من جملتكم والصابرون على الجهاد.

وقيل معناه: حتى يعلم اولياؤنا المجاهدين منكم. واضافة إلى نفسه تعظيماً لهم وتشريفاً... وقيل: معناه: حتى نعلم جهادكم موجوداً، لأن الغرض أن تفعلوا الجهاد... ﴿**ونبلو اخباركم**﴾ أي نختبر اسراركم بما تستقبلونه من افعالكم»[٤٤].

وقوله تعالى: ﴿**أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين**﴾[٤٥]. قال الطبرسي: «أي ولما يجاهد المجاهدون منكم فيعلم الله جهادهم، ويصبر الصابرون منكم فيعلم صبرهم على القتال. وإنما جاز ﴿**ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم**﴾ على معنى نفي الجهاد دون العلم، لما في ذلك من الايجاز في انتفاء جهادهم، لأنه لو كان لعلمه وتقديره: ولم يكن المعلوم من الجهاد الذي اوجب عليكم، لأن المعنى مفهوم لا يشتبه»[٤٦].

وقوله تعالى: ﴿**وما اصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين * وليعلم الذين نافقوا**﴾[٤٧]. قال الطبرسي: «معناه: ليميز المؤمنين من المنافقين، لأن الله عالم بالاشياء قبل كونها، فلا يجوز أن يعلم عند ذلك ما لم يكن عالماً به، إلا أن الله اجرى على المعلوم لفظ العلم مجازاً، أي ليظهر المعلو م من المؤمن

(٤٠) مجمع البيان ٢: ٥١٠.

(٤١) البقرة: ١٤٢.

(٤٢) الميزان ١: ٣٢٧.

(٤٣) محمد: ٣١.

(٤٤) مجمع البيان ٩: ١٠٦ ـ ١٠٧.

(٤٥) آل عمران: ١٤٢.

(٤٦) مجمع البيان ٢: ٥١١.

(٤٧) آل عمران: ١٦٦ ـ ١٦٧.

والمنافق» (٤٨).

وقوله تعالىٰ: ﴿ام حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ (٤٩).

قال الطبرسي: «معناه: ولما يظهر ما علم الله... فذكر نفي العلم، والمراد نفي المعلوم، تأكيداً للنفي» (٥٠).

وهكذا في قوله تعالىٰ: ﴿ليعلم الله من يخافه بالغيب﴾ (٥١).

قال الطبرسي: «وقيل: ليعلم وجود خوف من يخافه بالوجود، لأنه لم يزل عالماً بأنه سيخاف، فإذا وجد الخوف علم ذلك موجوداً، وهما معلوم واحد وإن اختلف العبارة عنه، فالحدوث إنما يدخل علىٰ الخوف لا علىٰ العلم» (٥٢).

ومثله قوله تعالىٰ: ﴿وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب﴾ (٥٣)، أي ليعلم الله نصرة من ينصره موجودة، وجهاد من جاهد مع رسوله موجوداً (٥٤).

وقوله: ﴿عالم الغيب فلا يظهر علىٰ غيبه احداً * إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً * ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربّهم واحاط بما لديهم واحصىٰ كل شيء عدداً﴾ (٥٥).

قال الطبرسي: «عن الزجاج: ليعلم الله أن قد ابلغوا ... وقيل معناه: ليظهر المعلوم علىٰ ما كان سبحانه عالماً ويعلمه واقعاً كما كان يعلم أنه سيقع» (٥٦).

وقال في قوله تعالىٰ: ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنّه فاتّبعوه إلا فريقاً من المؤمنين * وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شكّ وربك علىٰ كل شيء حفيظ﴾ (٥٧): «المعنىٰ: أنا لم نمكّنه من إغوائهم ووسوستهم إلّا لنميز بين من يقبل منه ومن يمتنع ويأبىٰ متابعته ... فعبر عن التميز بين الفريقين بالعلم، وهذا التمييز متجدّد، لأنه لا يكون إلّا بعد وقوع ما يستحقون به ذلك، وأما العلم فبخلاف ذلك، فإنه سبحانه كان عالماً بأحوالهم وبما يكون منهم فيما لم يزل» (٥٨).

وكذلك قال في قوله تعالىٰ بشأن اصحاب الكهف: ﴿ثم بعثناهم لنعلم أيّ الحزبين احصىٰ لما لبثوا امداً﴾ (٥٩) «أي ليظهر معلومنا علىٰ ما علمناه» (٦٠).

وذكر الامام الرازي عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿الآن خفّف الله عنكم وعلم أنّ فيكم ضعفاً﴾ (٦١) أن المتكلمين قالوا بأنّ معنىٰ الآية: أنه تعالىٰ قبل حدوث

(٤٨) مجمع البيان ٢: ٥٣٣.

(٤٩) التوبة: ١٦.

(٥٠) مجمع البيان ٥: ١٢.

(٥١) المائدة: ٩٤.

(٥٢) مجمع البيان ٣: ٢٤٤.

(٥٣) الحديد: ٢٥.

(٥٤) مجمع البيان ٩: ٢٤١.

(٥٥) الجن: ٢٦ ـ ٢٨.

(٥٦) مجمع البيان ١٠: ٣٧٤.

(٥٧) سبأ: ٢١ ـ ٢٢.

(٥٨) مجمع البيان ٨: ٣٨٨ ـ ٣٨٩.

(٥٩) الكهف: ١٢.

(٦٠) مجمع البيان ٦: ٤٥٢.

(٦١) الانفال: ٦٦.

الشيء لا يعلمه حاصلاً واقعاً، بل يعلم منه أنه سيحدث. أما عند حدوثه ووقوعه، فإنه يعلمه حادثاً واقعاً. فقوله: ﴿الآن خفّف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً﴾ معناه: أن الآن حصل العلم بوقوعه وحصوله، وقبل ذلك فقد كان الحاصل هو العلم بأنه سيقع أو سيحدث(٦٢).

وبذلك نعرف معنى قوله تعالى: ﴿قل أتنبّئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الارض﴾(٦٣).

وقوله تعالى: ﴿أم تنبّئونه بما لا يعلم في الارض ام بظاهر من القول﴾(٦٤).

إذ نفي علمه تعالى كناية عن عدم الوجود، إذ لو كان لبان وعلمه تعالى. قال الطبرسي: «معناه: أنه ليس، ولو كان لعُلم»(٦٥).

والذي نستخلصه من مجموعة هذه الآيات هو أن علمه تعالى بالأشياء أو بالأمور، وإن كان ازلاً ومن غير اختلاف بالنسبة إليه سبحانه، لكنه بالنظر إلى تعلقاته التي هي اضافات خاصّة، كان مختلفاً تعلّقاً، فعلمه تعالى بالشيء قبل وجوده، علم تعلق بوصف الشيء وهو أنه سيوجد، وأما علمه تعالى المتعلق بذات الشيء فهو الذي يتحقق بتحقق الشيء وبعد افاضة الوجود عليه. ومن ثم كان علمه تعالى بالشيء مساوقاً لوجود ذلك الشيء، فمتى وجد عُلم، وما لم يوجد لم يعلم، لأنَّ الوجود ـ في حقيقته ـ ظهورٌ، والظهور عبارة عن الحضور في محضر الحق تعالى، كما أن علمه تعالى بالأشياء أيضاً عبارة عن حضور الاشياء لديه، ومن ثم تساوق العلم والوجود. تحقّقاً وتشخّصاً بالنسبة إلى ساحة القدس تعالى وفي عرصات صفحة الوجود.

(٦٢) التفسير الكبير ١٥: ١٩٦.

(٦٣) يونس: ١٨.

(٦٤) الرعد: ٣٣.

(٦٥) مجمع البيان ٥: ٩٨ و٦: ٢٩٥.